في أدب الأطفال:

(أغاريد المسلم الصغير)(*)

أغناني الشاعر حكمت صالح، نفسه، في مقدمته الخصبة، عن تناول أدب الأطفال في إطاره الإسلامي، والإيماني عموماً... عن ضروراته وتشكّله عبر العقود الأخيرة... والمعطيات الدراسية والإبداعية والتنظيمية التي رافقته وغذّته، وهي للأسف شحيحة لا تتجاوز، كما ينقل الشاعر عن الدكتور عبد الباسط بدر«ثلاثة كتب وثلاثة بحوث، وسبعة عشر مقالة«!!

كما أغناني عن متابعة «قصّة» هذه المجموعات ذات الأربع عشرة نشيداً وقصيدة. فلأدخل -إذن- إلى نسيج هذه الأناشيد للتأشير على بعض ما تريد أن تقوله.

في الأناشيد الثماني يلحظ القارئ تدرّجاً في المعالجة يستهدف تغطية الموضوعات الأساسية للخبرة الإسلامية: الله (جلّ في علاه)... القرآن الكريم... النبي الأكرمﷺ... أصحاب الجنة (وكان يمكن أن يقتصر العنوان على الجنة لتجاوز اللبس مع قصّة قرآنية معروفة في هذا السياق، ولإعطاء فضاء أوسع يتناسب مع نعيم الجنة الذي يتحدث عنه النشيد)... ثم خالد بن

(*) (للشاعر حكمت صالح من الموصل في العراق).

الوليد كنموذج للبطولة الإسلامية التي تنطوي على جمالياتها الخاصة لدى الطفل المسلم.... وهناك أيضاً ثلاثة أناشيد أخرى عن (الطفل المؤمن) والأقمار المعلّقة في السماء الدنيا... والعيد...

قد تكون هناك حاجة، بعد نشيد النبي الأكرمﷺ، لمقطوعة أخرى تنشد للإسلام، لكي تكتمل الصورة... وعلى أية حال فإن هذه الأناشيد، التي تَعد بمحاولات أخرى إن شاء الله، تكفي في ديوان كهذا، لتحقيق وظيفتها الفَنية في الخطاب الشعري الذي يُعنى بالطفل.

أما القصائد فتحكي إحداها عن القمر، وتقدم ثانيتها حوارية الأمومة والطفولة في ظلال الإيمان... وترسم الثالثة والرابعة، بريشة الكلمة: حنين الطفولة وأمانيها - وتختتم القصائد بانطباعات الأبوة على عيون الأطفال...

وهي -جميعاً- كما يلحظ القارئ، تكمل الصورة، وتعمق ملامحها، وتغني الخطاب الشعري الذي يمضي للتعامل الجميل المؤثر مع الأطفال، حاملاً إليهم كل ما هو برئ، مؤمن وضيء، في هذا العالم مما أراد هذا الدين أن يمنحه الطفل وهو يدرج في العالم تحت مظلة الله، لكي ما يلبث أن يستوي على سوقه فيعجب الزرّاع ويغيظ الكفّار...

والشاعر، مرة أخرى، يقطع الطريق على أية محاولة للتقديم تستهدف التأشير على المضامين الأساسية للديوان، وذلك من خلال«تحديده»للسياقات الأساسية التي تتحرك في إطارها المضامين.. فهناك:

أولاً: التأكيد على إبداعية الخالق تبارك وتعالى في الخلق من خلال منظورنا الكوني.

ثانياً: التوحيد في مواجهة الصنمية وحضارة التكاثر بالأشياء أو تأليه الإنسان.

ثالثاً: تأصيل الإيمان بالعلم الآخر، وتحبيب الجنة وأجوائها إلى الطفل المسلم.

وذلك بالاستفادة من التصوير القرآني لها.

رابعاً: تمجيد البطولة الإسلامية من خلال الرمز التاريخي.

ويتساءل المرء بعد هذا كله: ما الملامح الفنية لأغاريد المسلم الصغير هذه؟

قد تكون الأناشيد حلقة فنية أكثر«وضوحاً»في التعبير عن هذه الملامح، ولهذا سينصب عليها الحديث.

لنقرأ معاً المقطع الأوّل من النشيد الأوّل: الله!

«قلت لأبي: يا أبتاهْ

قلت لأمي: يا أماهْ

كون أجمل ما فيه إتقان بناه

من مدّ الأرض وزين بالنجم سماه؟

فأجاب فؤادي قبلهما: الله... الله..

قل في السرّ ما أروعهُ

قل في الجهرْ من أبدعهُ

يا أماه... يا أبتاه

الله... الله... الله... اللهْ»

البحر المناسب... والتفعيلات السريعة المترعة بالدهشة... والقافية الموظّفة بعناية... وتتويج هذا كلّه بتكرار كلمة (الله) في ختام المقطع أربع مرّات، بما يؤكد بؤرة الاستقطاب في النشيد كلّه، في حسّ الطفل المسلم ويحفرها عميقاً في وجدانه، لكي ما تلبث أن تبقى هناك إلى الأبد.

المعاني واضحة تماماً لا إغماض فيها ولا التواء، فهي -من ثم- تحمل صدقها الفنيّ من حيث إنها تتوجه بالخطاب إلى الأطفال، لكن هذا لن يكون -أبداً- على حساب السوية الشعرية... والشاعر لا يجرّه «المناخ الشعري» إلى التضحّل والمباشرة - وإن كان انزلاق كهذا يحدث بين الحين والحين، ولكنه لا يعدو أن يكون بقعاً محدودة- فهو من خلال تمرّسه الطويل في الخبرة يعرف كيف يتحقق بالمعادلة الصعبة بين البساطة العذبة وبين المطالب الفنية للنشيد، محاولاً الاستعانة بين الحين والحين

بالصورة الشعرية التي هي هنا أكثر لزوماً لأنها تعين على تجسيد المعاني، والمجرّدات، وتوصيلها إلى وجدان الطفل بقوّة التخييل الحسّي.

والمفردات التي ينسج منها الشاعر صوره تلك، كثيرة، متنوعة، تستمدّ مقوّماتها من دنيا النبات حيناً والحيوان حيناً آخر، ومن الطبيعة والأرض والجبال والأنهار والبحار والشلالات والعيون والسدم والنجوم والسماوات حيناً ثالثاً... فليس ثمة ما هو ألصق بالطفولة من مرئيات الطبيعة المشهودة والعالم المنظور، بكل ما تنطوي عليه من قيم جمالية تتدرّج في البوح عن مكنونها عبر مستويات شتى ما بين الطفل، والفنان، والمفكر، والرياضي، والفيلسوف... ويبقى -ثمة- للطفولة الهامش الأكثر اتساعاً وشفافية وإثارة وبراعة فكأن بين موجودات العالم والطبيعة، وبين الطفولة لغة ما، تعرف كيف تجعلهما يتحاوران معاً بألفة ودهشة وإعجاب وتناغم وعفوية قد تستعصي على الكثيرين بحكم الإلف والخبرة والاعتياد.

ليس هذا فحسب، بل إن هناك، في قاموس الإيمان، ما هو أكثر أهمية: إنّ هذه المفردات -بالذات- لهي من بين حشود المعطيات الأخرى، أكثر الطرق قرباً من الله... بمعنى أنها تصل بين الحسّ الإيماني وبين خالق الملكوت وفق أشدّ الصيغ فاعلية وإقناعاً وقدرة على الخطاب.

وهذه مسألة معروفة، بل هي من بداهات الخلق... ولكن الإلف والاعتياد -كرّة أخرى- مارسا نوعاً من التغرب والتغييب بين لغتها المدهشة وبين الإنسان، ولذا نجد كتاب الله يعود المرة تلو المرة لكي يتحدث عن إبداعية الله سبحانه في خلْقه...

والحديث في هذه الظاهرة يطول... ولن يتّسع تقديم موجز كهذا لتفصيل القول فيه... والمهم أن الأغاريد التي بين أيدينا تعرف كيف تتعامل مع الظاهرة فتجعل الصورة الشعرية، وبكثافة ملحوظة، فرصة فنية مناسبة لتحقيق المطلوب.

فبمجّرد أن نعبر المقطع الأوّل من النشيد الأوّل: (الله) نجد أنفسنا قبالة هذا الدفق من الموجودات التي يصوغ بها الشاعر صوره، ويهدهد بها شوق الطفولة، وحلمها، ودهشتها البكر التي لا تكفّ عن الخفقان...

«الخضرة عرس... زفّ الأمواه

يستهوي النفس يا ما أحلاه!

أطيار الروض تسبّح باسمك في الفجر

وسواقي النبع يرقرقها حلو الذكر

وجنان الله مطوّقة بشذا العطر

وإذا البلبل باسمك غرّد...

فغصون الفلّ... تركع... تسجد

يا أمّاه... يا أبتاه

الله... الله... الله... الله»

يُغادر الشاعر، بين لحظة وأخرى، ومن أجل التنويع الفنيّ، تشبّثه بالصورة الحسّية، فيرجع إلى المعاني والتجريدات، ولكنّ بالمستوى الذي لا يستعصي على وجدان الطفولة وقدراتها العقلية... ثم ما يلبث أن يرجع، مرة ومرتين وثلاثاً، إلى التخييل والتجسيد، ورسم الصورة، فرصة لإعانة الطفل على متابعة المعاني، أو -بعبارة أخرى- تمكين هذه من الوصول إلى الطفل... وسط مهرجان من الأصوات والروائح والألوان التي تفغم الحسّ وتقرّ به من المطلوب فيقول عن قوس المطر: (١)

«نور يتدفق من قرص الشمس صباحاً

ويطرّز باسم الله الآفاق وشاحاً..»

وهناك -دائماً- في تركيب الأناشيد تلك الإلفة الكونية بين الطفولة والموجودات، تضعها قبالة الخالق سبحانه وهي تخفق بالشكر والمحبّة وتسبّح باسم الله:

«ومعي النحل يتهجدْ

ومعي النمل يتعبّد

أهناك إله من دون الله؟!

الله... الله... الله... الله»

---

(١) في الأصل : (أعراس الرحمن ملونة أقزاحاً) وقوله (أعراس الرحمن) تعبير غير موفق.

طبعاً، هنالك أناشيد قد لا يسمح المجال الذي تتحرك فيه باستدعاء الشاهد الجمالي من الطبيعة، وهنا قد يلجأ الشاعر إلى أدوات فنية أخرى كي لا يتمخّض النشيد «للمعنى وحده» فَيَتَعثر وصوله إلى الأطفال، أو تبهت شحناته المؤثّرة في وجدانهم.

إننا نجده -حيناً- يحشد أسماء السور القرآنية لكي يقدمها للأطفال في نشيد (كتاب الله) في عرض موسيقي جميل:

«**لنا (الإسراء) و(الرحمن) لنا (الشعراء) و(الفرقان)**

لنا (الصافات)... و(الأحقاف)

لنا (الحجرات)... و(الأعراف)

لنا (الأحزاب)... و(الزُمَرُ)

لنا (التكوير)... و(القمرُ)

لنا (النصر) لنا (القدر) لنا (الدهر) لنا (الحشر)..»

ونتذكر -ها هنا- قصيدة (أطلس التوحيد) في ديوان (حيّ على الفلاح) وكيف أن صاحبنا استطاع أن يوظف فيها حشود (الأعلام) الجغرافية، فيجعلها، على صعوبة نطقها أحياناً، سلسة على الألسن وفي الأفواه، بقوة الأداء الشعري، ويمكّنها - في الوقت نفسه- من أن تقول ما يريد هو أن يقوله من أن بلدان عالم الإسلام من المحيط إلى المحيط... مواقعه... قراه...

مدائنه... عواصمه... جباله... سهوله... غاباته... وشلّالاته... إنما هي أصوات متنوّعة تنبض بشيء واحد، وتحمل همّاً واحداً، وتعبّر عن عالم ذي حيثيات متفرّدة، هو عالم الإسلام هذا بكل أقوامه وشعوبه وجماعاته...

إن جغرافية عالم الإسلام، وظّفت في تلك القصيدة، وربما للمرة الأولى، فيما لم يستطع - شاعر آخر أن ينفّذه بهذا القدر من الإلمام والإحكام الفنّي في الوقت نفسه.

في نشيد (النبيّ الأكرم)ﷺ نجد شيئاً آخر قد يدهش الأطفال ويثير إعجابهم، لأنه يعرف كيف يعتمد التقطيع الحرفي الذي يتعلمون - في مدارسهم - من خلاله لغة الضاد:

«اكتب اسم نبيّي الأكرم

صلى الله عليه وسلم

ميم... حاءٌ... ميمٌ... دال

اسم تكتبه الأجيال

* * *

ميم... حاء... ميم... دال

يشدو القلب بصوت عالْ

لمحمدْنا ننشد: هيّا...»

وتلفت الانتباه ها هنا كلمة «لمحمدّنا» بضمير الجمع المضاف

إلى اسم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام... وهذا يجعل الأطفال يتلقّون إحساساً فريداً مترعاً بالاعتزاز، بأن النبيّ هو نبيّهم، وأن محمداً ﷺ هو محمّدهم... وهذا هو المطلوب في نشيد كهذا..

ثمة معنى آخر لا يقل أهمية يرسمه الشاعر بهذين البيتين:

«ميم... حاءٌ... ميم... دالْ

الحق، وما بعد الحق ضلال (١)

لا يجمع من كان تقيّا

ما بين حرام وحلال»

فيوجز بكلمات قلائل ما تقوله الكتب والبحوث في عشرات الصفحات، وتمنحه الأطفال بصيغة مقولة مؤثّرة قد تجري مجرى الأمثال.

في نشيد (خالد بن الوليد) تأكيد على قيم البطولة (سوف يكتب الشاعر فيما بعد، رباعيات يرسم من خلالها حشوداً من النماذج البشرية التي يحاول بواسطتها أن يقدّم البطولة الإسلامية في مستوياتها المختلفة). والذي يهمّنا هنا هو الضمير الذي يبدأ به النشيد:

«جدنا خالد جدنا خالد»

---

(١) هذا الشطر فيه كسر عروضي ويمكن تقويمه بأن يقال: حق يمحو كل ضلال.

وهذا يمنح الأطفال مزيداً من الاعتزاز بهذه القائد الصدِّيق... «جدّهم» وقد يؤخذ على هذا النشيد هبوط نبضه الشعري، ونزوعه إلى التقريرية بين لحظة وأخرى... ومع ذلك فثمة ما قد يبرّر هذا في طبيعة الموضوع، والطرف المتلقّي، وهو هنا حشود الأطفال التي تجد في «البطولة» مبتغاها وتشبع في أنفسها أكثر من حاجة.

يمضي القارئ مع بقية الأناشيد لكي ما يلبث أن يجد في (حادي بادي) واحداً من أكثرها عذوبة وصدقاً فنياً.

يبدأ النشيد بمطلع مأثورة شعبية يردّدها أطفال الموصل، ومدن عربية أخرى، في ألعابهم... ثم ما نلبث أن نستمع إلى طفلة الشاعر (أقمار) تسأله:

«يا أبتي: هل تكتب شعراً؟

عن أقمار فوق سحابه

تسجد لله معي شكراً»

ونسمعها تقول وهي تلعب مع أصحابها:

«اسمي أقمارٌ يا صحبي

أحلم أن جناحي طال

جسراً يمتد إلى القلب

يتجاوز أفق الأجيال»

بعدها... تتدفق الأبيات مترعة بالصور المرسومة بعناية، مسخّرة مفردات الوجود، منطقة إياها بالتسبيح بحمد الله... وسط مهرجان محمل بالبهجة والفرح والجمال:

«إن نام الناس ففي سهري تسكنني البهجة والفرحُ
أتأمل في صمت قدري فيلوّن إحساسي قزح»

وفي مقطع آخر نتلقى القناعة، بقوّة المنظور الذي يتشكل قبالتنا صباح مساء، بأن هناك يداً مدبّرة قديرة فاعلة حاضرة هي يد الله سبحانه:

«ما بين المغرب والفجر من علّقها في الأفلاك؟
من يهديها الدرب فتجري تمضي طول الليل هناك؟»

ومرّة أخرى نجدنا قبالة مقطع لا يتجاوز البيتين، لكنه بتركيزه الشعري، بعفويته وسلاسته المؤثرة، وباستمداده من الحسِّ الإيماني العميق، يمكن أن يجري مجرى الأمثال:

«من جاوه حتى غرناطه كل بلاد الله بلادي
وطن إن نوّع أنماطه يتوحّد بالأمجاد»

وما يلبث النشيد أن ينتهي من حيث بدأ بالمأثور الشعبي نفسه، وبالحركة الجماعية ذات الإيقاع الواحد، والتي تذكّرنا بالعديد من قصائد (على عتبات الجنة السمراء)، ولنتذكر أيضاً مناخ الطفولة والبراءة هناك في أعماق إفريقيا التي تخفق فيها

قصائد الديوان المذكور. وهذا كلّه يمنح الديوان الذي بين أيدينا -ولا ريب- مزيداً من الحيوية والصدق. لكن ها هنا يدخل الشاعر نفسه لكي يلعب مع الأطفال، ويدور معهم مردّداً:

«حادي بادي

يوم الجمعهْ

هات مرادي

غنّوا معنا يا أولادي»

ونتذكر كيف أنه، في الإسلام، كان رسول الله ﷺ نفسه يلعب مع الصبيان، وينافسهم في الجري... ويسمح لحفيديه الحسن والحسين، أن يتسلقا كتفه الشريفة وهو يصلّي، فيتركهما على هواهما، لا يزجرهما أو ينهاهما!

فإن قاموس الطفولة... وبراءتها تجعلانه يستعذب عبث الصغار...